أحاديث إصلاح القلوب

(١٨)

معرفة أسماء الله وصفاته

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**». متَّفق عليه(١).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ: بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ؛ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا، قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا**». رواه أحمد(٢).

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ، فَيَخْتِمُ بِـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]. فَلَمَّا رَجَعُوا ذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ**».

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

(٢) رواه أحمد (٣٧١٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (١٩٩).

فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ**». متَّفق عليه(١). وفي لفظ آخر قال له: «**حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ**»(٢). ففيه: أنَّ مَن أحبَّ صفات الله؛ أحبَّه الله، وأدخله الجنَّة.

إنَّ معرفةَ أسماءِ الله وصفاتِه الواردةِ في الكتابِ والسُّنَّة، والَّتي تدلُّ على كمالِ الله المطلق من كافَّة الوجوه، لَمِنْ أعظَمِ أبوابِ إصلاح القلوب، وذهابِ همومها، وغمومها، وأسقامها؛ وذلك لأنَّ الاشتغالَ بمعرفتِها وفهمِها، والبحثَ التَّامَّ عنها مشتملٌ على فوائد كثيرة وعظيمة، **منها:**

أوَّلًا: أنَّ علم توحيد الأسماء والصِّفات؛ أشرفُ العلوم وأجلُّها على الإطلاق، فالاشتغالُ بفهمِه، والبحثُ عنه؛ اشتغالٌ بأعلى المطالب، وحصولُه للعَبد من أشرف المواهب.

ثانيًا: أنَّ معرفة الله تدعو إلى: محبَّته، وخَشْيَته، وخوفِه، ورجائِه، وإخلاص العمل له. وهذا عينُ سعادة العبد، ولا سبيلَ إلى معرفة الله إلَّا بمعرفة أسمائه وصفاته، والتَّفقُّه في فهم معانيها.

ثالثًا: أنَّ اللهَ خلقَ الخَلق؛ ليعرفوه ويعبدوه، وهذا هُو الغاية المطلوبة منهم، فالاشتغالُ بذلك اشتغالٌ بما خُلِقَ له العبدُ، وتركُه وتضييعُه؛ إهمالٌ

---

(١) رواه البخاريُّ (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣).

(٢) رواه البخاريُّ تعليقًا (١/ ١٥٥)، ووصله التِّرمذيُّ (٢٩٠٣).

لما خُلِق له، وقبيح بعَبدٍ -لم تَزل نِعَمُ الله عليه متواترةٌ، وفضلَه عليه عظيمٌ من كلِّ وجه- أن يكون جاهلًا بربِّه معرضًا عن معرفته.

رابعًا: أنَّ أحد أركان الإيمان، بل أفضلَها وأصلَها الإيمانُ بالله، وليس الإيمان به مجرَّد قوله: آمنتُ بالله من غير معرفتِه بربِّه، بل حقيقةُ الإيمانِ أن يعرفَ الَّذي يؤمنُ به، ويبذُلَ جهدَه في معرفةِ أسمائِه وصفاتِه، حتَّى يبلغ درجةَ اليقين، وبحسب معرفته بربِّه يكون إيمانُه، فكلَّما ازداد معرفةً بربِّه؛ ازداد إيمانُه، وكلَّما نقصَ نقصَ، وأقربُ طريقٍ يوصله إلى ذلك تدبُّر صفاته وأسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

خامسًا: أنَّ العلمَ به تعالى أصلُ الأشياء كلِّها، حتَّى إنَّ العارف به حقيقة المعرفة، يستدلُّ بما عرف من صفاته وأفعاله، على ما يفعَله، وعلى ما يشْرَعُه مِنَ الأحكام؛ لأنَّه لا يفعل إلَّا ما هو مقتضَى أسمائه وصفاته، فأفعالُه دائرةٌ بين العَدل والفَضل والحكمة؛ ولذلكَ لا يَشْرَع ما يشْرَعه مِنَ الأحكام إلَّا على حسب ما اقتضَاه حمدُه وحكمتُه وفضلُه وعدلُه، فأخبارُه كلُّها حقٌّ وصدقٌ، وأوامرُه ونواهيه عدلٌ وحكمة.

ومن هذه الفوائد: أنَّ معرفَةَ الأسماء الحسنى والصِّفات العُلى مقتضيةٌ لآثارها مِنَ العبوديَّة والخضُوع، فلكلِّ صفةٍ عبوديَّة خاصَّة، هي من مقتَضَياتِها، وموجبات العلم بها، والتَّحقُّق بمعرفتها، وهذا مطَّردٌ في جميع

أنواع العبوديَّة، الَّتي على القَلب والجَوارح.

وبيانُ ذلك: أنَّ العبد إذا عَلِم بتفرُّد الرَّبِّ تعالى؛ بالضُّرِّ، والنَّفع، والعَطاء، والمَنع، والخَلق، والرَّزق، والإحياء، والإماتة. فإنَّ ذلك يُثْمر له عبوديَّةَ التَّوكُّل عليه باطنًا، ولوازم التَّوكُّل وثمراتِه ظاهرًا.

وإذا عَلِم بأنَّ الله سميعٌ بصيرٌ عليمٌ، لا يخفى عليه مثقال ذرَّة في السَّموات ولا في الأرض، وأنَّه يعلم السِّرَّ وأَخْفَى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصُّدور، فإنَّ هذا يُثمر له: حفظ اللِّسان، والجوارح، وخطرات القَلب عن كلِّ ما لا يُرضي اللهَ، وأن يجعَلَ تعلُّقاتِ هذه الأعضاء بما يحبُّه الله ويرضَاه.

وإذا عَلِم بأنَّ اللهَ غنيٌّ كريمٌ برٌّ رحيمٌ واسعُ الإحسان، فإنَّ هذا يوجبُ له قوَّةَ الرَّجاء، والرَّجاءُ يثمر أنواعَ العبوديَّة الظَّاهرة والباطنة بحسب معرفتِه وعلمِه.

وإذا عَلِم بكمالِ الله وجمالِه؛ أوجبَ له هذا محبَّةً خاصَّةً، وشوقًا عظيمًا إلى لقاء الله، وهذا يُثمر أنواعًا كثيرةً مِنَ العبادة.

وبهذا يُعلم أنَّ العبوديَّةَ كلَّها راجعةٌ إلى مُقتضَيَات الأسماء والصِّفات.

فإذا عرفَ العبدُ ربَّه، المعرفةَ الحقيقيَّةَ المطلوبةَ، السَّالمةَ من طُرُق أهل الزَّيغ في معرفة الله، والَّتي تُبنى على تحريفِ الأسماء والصِّفات، أو تعطيلِها،

أو تكييفِها، أو تشبيهِها، فمَن سَلِم من هذه المناهج الكلاميَّة الباطلةِ -الَّتي هيَ في الحقيقة أعظَم ما يحُولُ بينَ العبد وبينَ معرفة ربِّه، وأعظَم ما يُنْقِصُ الإيمانَ ويُضْعِفُه- وعرفَ ربَّه بأسمائه الحسنى وصفاته العُلَى، الَّتي تعرَّف بها إلى خلقِه، والَّتي وردت في الكتاب والسُّنَّة، وفَهِمَها على منهج السَّلف الصَّالح؛ فقَد وُفِّقَ لأعظم أسباب زيادةِ الإيمان.

وقول الرَّسولُ ﷺ: «**إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**»(١). فيه حثٌّ على إحصاء هذا العدد من أسماء الله، وليس المُراد بالإحصَاء عدَّها فقَط، وإنَّما المرادُ العمَلَ بما تقتضيه، فلا بدَّ من فَهْم معاني الأسماء والصِّفات، ومعرفَةِ ما تدلُّ عليه، حتَّى يتسنَّى الاستفادةُ التَّامَّةُ بها.

قال أبو عُمَر الطَّلَمَنْكِيُّ: «مِنْ تمام المعرفة بأسماء الله تعالى وصفاته، الَّتي يستحقُّ بها الدَّاعي والحافظ ما قال رسولُ الله ﷺ، المعرفة بالأسماء والصِّفات وما تتضمَّن مِنَ الفوائد، وتدلُّ عليه مِنَ الحقائق، ومَن لم يعلَم ذلك لم يكن عالمًا لمعاني الأسماء ولا مستفيدًا بذكرها ما تدلُّ عليه من المعاني»(٢).

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

(٢) فتح الباري (١١/ ٢٢٦).

وقد ذكر ابنُ القيِّم: لإحصائها ثلاثَ مراتبَ:

المرتبة الأولى: إحصاءُ ألفاظِها وعددِها.

المرتبة الثَّانية: فهمُ معانيها ومدلولاتِها.

المرتبة الثَّالثة: دعاءُ الله بها، وهذا شاملٌ لدُعَاء العبادة ودُعَاء المسألة(١).

وقال ابنُ سعديٍّ مبيِّنًا معنى «أحصاها» الواردة في حديث أبي هريرة المتقدِّم: «أي: مَن حَفِظَها وفَهِمَ معانيها، واعتقدها وتعبَّد اللهَ بها دخَلَ الجنَّةَ، والجنَّةُ لا يدخُلها إلَّا المؤمنون، فعُلِم أنَّ ذلك أعظمَ ينبوعٍ ومادَّةٍ لحصولِ الإيمانِ وقوَّتِه وثباتِه، ومعرفةُ الأسماء الحسنى هي أصلُ الإيمان، والإيمانُ يرجِعُ إليها»(٢).

فمَنْ عَرَف اللهَ هذه المعرفَةَ؛ كان مِن أقوى النَّاس إيمانًا، وأشدِّهم طاعةً وتعبُّدًا لله، وأعظمِهم خوفًا ومراقبةً له سبحانه.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

قال ابنُ جرير الطَّبريُّ في «تفسيره» لهذه الآية: «يقولُ تعالى ذكره: إنَّما يخافُ اللهَ فيتَّقي عقابَه بطاعتِه؛ العلماءُ بقُدْرتِه على ما يشاءُ من شيءٍ، وأنَّه يفعَلُ ما يريد؛ لأنَّ مَن عَلِم ذلك أيقَن بعقابِه على معصيتِه، فخافه ورهبه

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٦٤).

(٢) التَّوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص٢٦).

خشيةً منه أن يعاقبَهُ»[١].

وقال ابنُ كثير: «أي: إنَّما يخشاه حقَّ خشيتِه العلماءُ العارفون به؛ لأنَّه كلَّما كانت المعرفةُ للعظيم العليم الموصوفِ بصفاتِ الكمالِ المنعوتِ بالأسماءِ الحسنى، كلَّما كانت المعرفةُ به أتَمَّ، والعلمُ به أكمَلُ؛ كانت الخشيةُ له أعظَمَ وأكثَر»[٢].

وقد جمع هذا المعنى أحد السَّلف في عبارة مختصرة، فقال: «مَن كانَ بالله أعرَفَ كانَ مِن الله أخْوَف»[٣].

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وليست حاجة الأرواح قطُّ إلى شيءٍ أعظمَ منها إلى معرفَة بَارِيهَا وفاطِرِها، ومحبَّتِه وذِكره والابتهاج به، وطلبِ الوسيلةِ إليه والزُّلفى عنده، ولا سبيلَ إلى هذا إلَّا بمعرفة أوصافِه وأسمائِه، فكلَّما كانَ العبدُ بها أعلم كانَ بالله أعرف، وله أطلب وإليه أقرب، وكلَّما كانَ لها أنكر كان بالله أجهل وإليه أكرَه ومنه أبعَد، والله يُنزِلُ العبدَ من نفسِه حيثُ يُنزلُه العبدُ من نفسِه...»[٤].

---

(١) جامع البيان للطَّبريِّ (٢٠/ ٤٦٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٤٤).

(٣) رواه المروزيُّ في تعظيم قدر الصَّلاة (٧٨٦).

(٤) توضيح المقاصد شرح نونيَّة ابن القيِّم (١/ ٢٤).

فمعرفةُ الله عَزَّوَجَلَّ تُقوِّي جانبَ الخوفِ والمراقبة، وتُعظمُ الرَّجاء في القلبِ، وتزيدُ في إيمانِ العبد، وتثمِرُ أنواعًا كثيرةً مِنَ العبادة، ولا سبيلَ إلى هذه المعرفة، ولا طريقَ إليها إلَّا تدبُّر كتاب الله، وما تعرَّف به سبحانه إلى عبادِهِ على ألسنَة رسلِه من أسمائه وصفاته وأفعاله، وما نزَّه نفسَه عنه ممَّا لا ينبَغي له ولا يليقُ به سبحانه، وتدبُّر أيَّامه وأفعالِه في أوليائِه وأعدائِه، الَّتي قصَّها على عبادِه، وأشهَدَهم إيَّاها؛ ليستدلُّوا بها على أنَّه إلـٰهُهم الحقُّ المبينُ، الَّذي لا تنبغي العبادة إلَّا له، ويستدلُّوا بها على أنَّه على كلِّ شيء قدير، وأنَّه بكلِّ شيءٍ عليم، وأنَّه شديدُ العقاب، وأنَّه غفورٌ رحيم، وأنَّه العَزيز الحكيم، وأنَّه الفعَّال لما يريد، وأنَّه الَّذي وسِعَ كلَّ شيءٍ رحمةً وعلمًا، وأنَّ أفعاله كلَّها دائرةٌ بين الحكمة والرَّحمة والعَدل والمصلحة، لا يخرجُ شيءٌ منها عن ذلك، وهذه الثَّمرة لا سبيل إلى تحصيلها إلَّا بتدبُّر كلامِه، والنَّظر في آثار أفعالِه[(١)].

وقد ذكر ابن القيِّم كلامًا نافعًا جامعًا مؤدِّيًا إلى هذه البصيرة، فقال: «وعَقْد هذا: أن يشهَدَ قلبُك الرَّبَّ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ مستويًا على عرشه، متكلِّمًا بأمره ونهيه، بصيرًا بحركات العالم علويِّه وسفليِّه، وأشخاصِه وذواتِه، سميعًا لأصواتهم، رقيبًا على ضمائرهم وأسرارهم، وأَمْرُ الممالك تحت تدبيره،

(١) مفتاح دار السَّعادة (١/ ١٨٥).

نازلٌ من عنده وصاعدٌ إليه، وأملاكُه بين يديه تنفِّذُ أوامرَه في أقطار الممالك، موصوفًا بصفات الكمال، منعوتًا بنعوت الجلال، منزَّهًا عَنِ العيوب والنَّقائص والمثال، هو كما وصف نفسَه في كتابه، وفوقَ ما يصفه به خلقُه، حيٌّ لا يموت، قيُّوم لا ينام، عليمٌ لا يخفى عليه مثقال ذرَّةٍ في السَّموات ولا في الأرض، بصيرٌ يرى دبيبَ النَّملة السَّوداء على الصَّخرة الصَّمَّاء في اللَّيلة الظَّلماء، سميعٌ يسمَعُ ضجيجَ الأصوات، باختلافِ اللُّغات على تَفَنُّنِ الحاجات، تَمَّتْ كلماتُه صدقًا وعدلًا، وجلَّت صفاتُه أن تُقاس بصفاتِ خلقِه شِبْهًا ومِثْلًا، وتعالت ذاتُه أن تُشْبِهَ شيئًا مِنَ الذَّوات أصلًا، ووسِعت الخليقةَ أفعالُه عدلًا، وحكمةً ورحمةً وإحسانًا وفضلًا، له الخلق والأمر، وله النِّعمة والفَضل، وله المُلك والحمد، وله الثَّناء والمجد، أوَّلٌ ليس قبله شيءٌ، آخرٌ ليس بعده شيءٌ، ظاهرٌ ليس فوقه شيءٌ، باطنٌ ليس دونه شيءٌ، أسماؤه كلُّها أسماء مدحٍ وحمدٍ وثناءٍ وتمجيدٍ؛ ولذلك كانت حُسْنَى، وصفاتُه كلُّها صفات كمال، ونعوتُه كلُّها نعوت جلال، وأفعالُه كلُّها حكمةٌ ورحمةٌ ومصلحةٌ وعدلٌ، كلُّ شيءٍ من مخلوقاته دالٌّ عليه، ومُرْشِدٌ لمَنْ رآه بعين البصيرة إليه، لم يخلُق السَّموات والأرضَ وما بينهما باطلًا، ولا ترك الإنسانَ سُدًى عاطلًا، بل خلقَ الخَلْق لقيام توحيدِه وعبادتِه، وأسبَغَ عليهم نعمَه ليتوسَّلوا بشُكرها إلى زيادةِ كرامتِه، تَعَرَّفَ إلى عباده بأنواع التَّعرُّفات،

وصَرَف لهم الآيات، ونوَّع لهم الدَّلالات، ودعاهُم إلى محبَّته من جميع الأبواب، ومدَّ بينه وبينَهُم من عهدِه أقوى الأسباب، فأتمَّ عليهم نعمَه السَّابغة، وأقام عليهم حجَّتَه البالغة، أفاضَ عليهم النِّعمة، وكتبَ على نفسِه الرَّحمة، وضمَّن الكتابَ الَّذي كتبَه أنَّ رحمتَه تغلبُ غضَبَه»[(١)].

فمَن كانت معرفتُه لله كذلك، وتفقَّه في هذه البصيرة، كانَ من أقوى النَّاس إيمانًا، وأحسنِهم إجلالًا وتعظيمًا ومراقبةً لله عَزَّوَجَلَّ، وأكثَرِهم طاعةً وتقرُّبًا إليه، والنَّاس في ذلك متفاوتون فمقلٌّ ومستكثِرٌ.

رزقنا الله أجمعين حسن الإيمان بأسمائه وصفاته، والتَّحقيق لتوحيده وتعظيمه، إنَّه سميعٌ مجيبٌ.

---

(١) مدارج السَّالكين (١/ ١٤٤).